

العلوم الحضارية وأثرها على الفكر الإسلامي - فلسفة الطب في العصر العباسي أنموذجا

(132 هـ / 232 هـ - 232 هـ / 334 هـ)

**Civilizational sciences and their impact on Islamic thought
the philosophy of medicine in the Abbasid era as a model
(132 AH / 232 AH - 232 / 334 AH)**

الدكتور: حسين رمضان

Dr : Ramdani hocine

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية - جامعة ابن خلدون - تيارت (الجزائر)

HOCINE.RAMDANI@univ-tiaret.dz

تاريخ النشر: 2023/07/13

تاريخ القبول: 2023/04/10

تاريخ الاستلام: 2022/12/06

الملخص: تبحث هذه المقالة في الدور الحضاري الإسلامي ومساهمته في تطور العلوم الحضارية المعروفة قديما، وهذا بفعل الدراسات الموسوعية والعلمية التي كان لها دور في تطور العلوم في العصر الحديث؛ كما تحاول هذه الدراسة أن تسلط الضوء على أهمية الاعتماد على الترجمات التي خلفها المؤرخون المسلمون من أجل التعريف بأهم العلوم الحضارية في مقدماتها الفلسفة والطب؛ وذلك بإبراز دور الشخصيات العلمية في مجال الطب والفلسفة واسهامهم في الرقي الحضاري للمسلمين؛ والمقالة تحاول الوقوف على عدد من التصورات والمفاهيم الفارقة المرتبطة بالجوانب الثقافية ذات البعد الفكري والعلمي، وهي تسعى لتقديم لمحة عن بعض السير والتراجم الرائدة في مجال فلسفة الطب عند المسلمين خلال العصر الوسيط.

الكلمات المفتاحية: الاسلام، الحضارة، الطب، الفلسفة، الحكيم.

Abstract: This article examines the Islamic civilizational role and its contribution to the development of the ancient known civilizational sciences, and this is due to the encyclopedic and scientific studies that had a role in the development of sciences in the modern era. This study also tries to shed light on the importance of relying on the translations left by Muslim historians in order to introduce the most important civilized sciences, foremost of which are philosophy and medicine. By highlighting the role of scientific figures in the field of medicine and philosophy and their contribution to the civilizational advancement of Muslims; The article attempts to identify a number of distinct perceptions and concepts related to the cultural aspects of an intellectual and scientific dimension, and it seeks to provide a glimpse of some pioneering biographies and translations in the field of medical philosophy among Muslims during the Middle Ages.

Keywords: medicine, philosophy, sage, Islam, civilization.

1. مقدمة:

ظهرت في العصر الحديث والمعاصر عدة دراسات تاريخية وفلسفية تحاول إعادة قراءة التراث الحضاري للفلسفة اليونانية القديمة، وهي تهدف في الأساس إبراز مكانة هذه الثقافة وأثرها على الحضارة العربية الإسلامية، باعتبار أن هذه الأخيرة تعتبر الوريث الشرعي للتراث الحضاري القديم بمختلف بنيابه. وقد تجلّى من خلال هذا الميراث العالمي انبجاس معالم نهضة علمية قادها علماء المسلمون ضد أشكال اللاعقلانية الغنوصية التي كانت تسيطر على الوعي الحضاري، وقد ارتسمت بفضل جهود المترجمين الإسلاميين مظاهر الوعي الحضاري للوجود الانساني برمته. لهذا هم أصحاب الدراسات الحديثة الى بعث الروح من جديد في التراث العلمي للحضارة العربية الإسلامية من خلال الاستفادة من مناهج جديدة تكفل تحقيق نصوص التراث الفلسفي والعلمي للمسلمين، وقد شملت هذه الحركة الجديدة التراث الطبي والفلسفي المنقول والمترجم إبان العصر العباسي الأول والثاني. وقد شهد الفكر الفلسفي والعلمي الإسلامي حقا في هذه المرحلة المتشظية، أي بداية من القرن الرابع للهجرة (404هـ)، أحداث تاريخية متفاوتة الأثر فيما تعلق بقضايا التطور الحضاري للأمة الإسلامية، وهو ما يمكن الوقوف عنده لتأمل حيثيات تشكل الوعي المعرفي العقلاني إبان هذه المرحلة، وفي محاولة الكشف عن مكامن القوة التي أدت الى ظهور مثل تلك التيارات والمدارس الفكرية الرائدة في الحضارة العربية.

ومما لا شك فيه أن الأثر الذي خلفته مدارس الطب والفلسفة اليونانية كالأفلاطونية المحدثة كان أشد قوة من حيث التأثير على الآراء الكبرى التي عرفها المسلمون آنذاك، والتي أدت إلى بروز أنماط فكرية وثقافية جديدة ساهمت بدورها في تشكل وعي الإنسان العربي المتحرر من قهر الوصاية القبلية والشعبوية، والمتشبث بمعايير الكونية الجامعة المانعة. من هنا يمكن اعتبار لحظة انتقال الفلسفة من اليونان إلى العالم الإسلامي بمثابة العامل الجوهرية الذي رافق نشأة علم الكلام جنبا إلى جنب، واللذان ساهما في تنوير الفكر العربي الإسلامي، خاصة إذا ما نظرنا بتأمل في تلك الظروف التي ساهمت بشكل كبير في تحديد معالم تلك الصورة المرحلية الزاهية من تاريخنا. والتي أدت بطبيعة الحال لتبلور حركة علمية ثقافية نشطة في نهاية العصر العباسي الأول وبداية الثاني. إن الإجابة عن أسئلة التراث العربي الإسلامي، وتتبع مخرجات سؤالنا الحضاري والمركزي في التاريخ، يتمثل في سعيها الحثيث لمعرفة كنه السؤال الحضاري الراهن: ماذا بقي لنا من تراث العربي والإسلامي لتستفيد منه أمتنا العربية في وقتها الراهن؟.

يحيلنا هذا السؤال بطبيعة الحال لضرورة إعادة تمثّل ما خلفه لنا علمائنا الأوائل من آثار علمية وفلسفية تشبعت بها كتب السير والتراجم في شتى مناحي الحياة الفكرية والثقافية، خاصة تلك التي خص بها المترجمون

والمؤرخون العرب والمسلمين شخصيات رائدة في الحضارة الاسلامية من الأدباء والعلماء والحكماء الأطباء. والذين جسدوا بآثارهم في وقت مضى رؤية الانسان المسلم لمفهوم عالمية للفكر العربي الاسلامي، والتي تميزت فعلا ببعدها الموسوعي والشمولي للإنسان الكوني، حيث تشكلت المعالم الكبرى للحضارة الانسانية بفعل عمليات الجمع والترتيب الجبارة التي تمت على مستوى عشرات الآلاف من أسماء وعناوين الكتب والموسوعات والرسائل الفريدة من نوعها في مختلف ميادين الآداب والعلوم والفلسفات.

2. الطبيب الرازي مثال الحكيم المتفلسف

جاء في باب تعريف الحكيم ووصف أخلاقه، معنى أن يكون الطبيب مثالا لوصف حكيم، أو بمعنى وصف الفيلسوف بالشخص الحكيم. ففي المعنى اللغوي للفظ (ح. ك. ي. م)، "يعني اسما للعلم المتقن والعمل به، وأن ضده كل ما يقصد به: السفه، أي: العمل على خلاف موجب العقل؛ وأن من وجوه الحكمة العلم بحقائق الأمور، وضده الجهل" (العربي، 1998، صفحة 48). وفي سياق نفسه اصطلاح ثقافت السير والتراجم على معاني أخرى تخص لفظ حكمة، إذ نقتبس عبارة وجيزة للإمام الراغب الاصفهاني، يقول فيها: "الحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات" (العربي، 1998، صفحة 47). ويقال إن الحكيم فهو المجرب الحاذق لأمر الحياة، وهو فيما يقصد به في بعض المعاجم والقواميس "العاقل الخبير الماهر"، ولفظه مشتق من بعض كلام الأراميين نسبة للجذر (hkm)؛ الدارج في بيان اللسان العربي، كمعنى ما يقصد به: "حاكم"، أي: قاض ووال. وتطلق بمعنى طبيب".

(الرزاق، 1944، الصفحات 106-107)

سنحاول من خلال هذا العرض ربط مضامين كتبه بالسيرة الفلسفية المعروفة عنه في السير. والتي يبدو أنها ساهمت وبشكل كبير في انبجاس فكر أنواري ينشد الأبعاد الإنسانية والكونية للحضارة الاسلامية. يقول الاستاذ محمد العربي الخطابي "الحكمة مطلب العقلاء وجليتهم وضالتهم في كل الشعوب والأمم، وقد مجدها الشرائع ووقرتها المدنيات" (العربي، 1998، صفحة 48) ويتجلى لنا البعد المعرفي والسوسيولوجي لمفهوم الحكيم في سيرة الطبيب الرازي في أقصى حدودها التجريبية والروحانية، باعتبار أن المذهب المادي الغنوصي كان ناجزا في الأساس عن مرجعيات الثقافة المزدوجة للفرس واليونان والتي كانت منتشرة في القرن الثالث والرابع للهجرة، حيث تجند لها الخطاب المعتزلي آنذاك من أجل مجابهة الأفكار المتزمتة والمنحازة لأيديولوجيا الدين واللاهوت. مما أدى في الأخير إلى حدوث انقلابات ضدية تنامت وأصرها في بنية المخيال الاجتماعي والثقافي للأمة خاصة في مرحلة ضعف الدولة العباسية. وهو ما جعل من الاضطهاد الديني أداة لانسياق الجموع وراء أطر السياسة المنغلقة

على ذاتها، فقد حمل الناس حيناً من الدهر على القول بخلق القرآن مثلاً دون أن يفسح للعقل الفلسفي المتحرر مناخاً لهذا الاتجاه الرجعي، خاصة وأن التحولات الحضارية كانت تتجاذبها أطراف عدة في مرحلة حساسة من تاريخ الدولة العباسية "الأمر الذي فسح المجال للمعقول العقلي لاحتلال مواقع جديدة، داخل الثقافة العربية الإسلامية، وبالذات في الفلسفة، علاوة على المواقع التي كان احتلها قبل" (الجابري، تكوين العقل العربي، 2010، صفحة 151)

ورغم أننا نعترف للرازي منذ البدء بأسبقيته فيما يخص تناوله مسائل فلسفية وعلمية تتعلق بالأخلاق مثلاً ويعلم الكيمياء والحيل من جهة أخرى. "وأنه كان قريباً جداً من الفلسفة اليونانية، خاصة في مجال الأخلاق، أكثر منه إلى شيء آخر. فبالكاد يعتبر الرازي فيلسوفاً للأخلاق الطبيعية (الحمارنة، 1976، الصفحات 45-46)، فإننا لازلنا بحاجة لدراسات أعمق وأدق حول هذه الشخصية العلمية المثيرة للجدل.

1.2 بعض آراء المستشرقين حول أعمال الطبيب الرازي:

تعتبر الدراسة التي أفردها الباحث المصري عبد اللطيف العبد، والموسومة بأصول الفكر الفلسفي عند أبي بكر الرازي، والصادرة عن دار النهضة، بجمهورية مصر العربية، عام 1972. خير دليل على أهمية تلك الدراسات التي تناولت آراء هذه الشخصية العلمية الفذة في تاريخ الفلسفة والعلوم (العبد، 1972، صفحة 17). إذ لا تقتصر قراءتنا هنا فقط على سرد عناوين الكتب التطبيب النظري، والتي قام بتأليفها الطبيب الفيلسوف الرازي خلال مساره العلمي والمهني. كما تعتبر الدراسة العلمية التي قام بنشرها الدكتور خالد حربي، والتي تحمل عنوان: (سر صناعة الطب لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي)، مثال واضح يعبر عن قيمة تلك الدراسات العلمية الرائدة في مجال إحياء العلوم الطبية في الإسلام. "وقد بيّن لنا فيها فضل أطباء المسلمين على الفكر العربي والغربي مدى أهمية كتب الرازي بالنسبة لتاريخ العلم العربي والعالمي، فضلاً عن الاهتمام الغربي بدراسة مخطوطات أئمة الطب العربي والإسلامي، بغية الوقوف على أسرار العلاج بالأعشاب والنباتات التي عوّل عليها أطباء الحضارة العربية الإسلامية". (حربي، د.ت، صفحة 09)

من أهم مؤلفات الرازي الطبيب في مجالي العلوم الميتافيزيقية وفنون النظر الفلسفي، حسب ما يورده كل من المستشرقان سلمون بينس (Salomone- Pines)، بول كراوس (Paul Kraus) (1904 - 1944م) (بدوي، موسوعة المستشرقين، 1993، صفحة 466) واللدان ضمناً آراء الرازي الفلسفية في كتاب بعنوان: (شرح العلم الإلهي)، حيث قالوا بشأن ذلك بأن الكتاب قد ذكر اسمه وصفته في ترجمة أفردها المتكلم ناصر خسرو قبادياني (394/1004-480/1088م)، موسومة بعنوان: (زاد المسافرين). ومعلوم أن هذا الأخير كان من علماء الباطنية

الاسماعيلية وهي فرقة إسلامية مناهضة لآراء الرازي الميتافيزيقية، حيث عارضت هذه الحركة مذهب الرازي الطبيب على أساس إيديولوجي بحت، خاصة فيما تعلق بقوله حول مسألة أخلاق اللذة والفعل. وقد كانت لهم ردود كثيرة في باب نقد الآراء المفردة في باب أخلاق اللذة عند الرازي الذي اعتبرها "خلاص تام من الألم" (الرازي أ.، رسائل فلسفية، 1982، الصفحات 148-149)

لقد اعتمد المستشرقين السالف ذكرهما على المصدر الاسماعيلي في نسبة الكتاب الى الرازي الطبيب، وفي بيان ما يمكن أن يرجح آراء الطبيب في اللذة ومصدرها المزدوج بين الجسماني والروحاني. غير أن هناك المصادر الأخرى والتي أشارت وبشكل صريح لأهمية تلك الآراء الفلسفية المنتحلة من قبل الطبيب الفيلسوف، من أهمها ما ورد في شكل مقتطفات قصيرة مدونة في كتاب المتكلم الاسماعيلي أبي حاتم الرازي (ت 322هـ) والموسوم بـ: (أعلام النبوة). وأخرى في كتاب ثان معروف بـ: "كتاب الزينة". وفي السياق نفسه يمكن العودة أيضا لأعمال المستشرق سلمون بينس التي تؤكد لنا أهمية هذين المرجعين التاريخيين، فإن التاريخ الاسلامي على العموم حسب بعض المؤرخين الحدائين لا يزال يحفظ لنا ما يقارب أربعة إحصاءات مشهورة، تتناول أصحابها ثبوتا بقائمة أسماء وعناوين كتب ورسائل أبي بكر الرازي أولها ثبت ابن النديم محمد بن إسحاق المعتزلي عاش (384هـ-994م)، وثانيها ثبت موفق الدين ابن أبي أصيبعة (600هـ-1203م)، صاحب كتاب: (عيون الأنبياء في طبقات الأطباء). أما الثابت الثالث فهو لجمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (568هـ/1172م-646هـ/1248م)، صاحب كتاب: (تاريخ الحكماء)، طبيب مؤرخ لقَّبه الأمراء بالوزير الأكرم. وثبت رابع وهو عبارة عن رسالة موجزة لأبي الرِّيحَانِ محمد بن أحمد البيروني (362هـ-973م/440هـ-1048م)، كان قد كتبها لشيخ الفلاسفة علي ابن سينا تضمن في متنها إحصاء عام لعناوين كتب الرازي الطبيب. (طوقان، 2002، صفحة 140)

ويمكن في البداية أن نبدأ بذكر رسالة البيروني، وبالموازاة مع بيان ثبت الإمام ابن أبي أصيبعة في كتاب: (طبقات الأطباء)، ثم وبدرجة أقل نضير الى ثبت عناوين كتب الطبيب في كتاب: (وقيات الأعيان وأنبياء أبناء الزمان)، المنسوب لشمس الدين بن خلَّكان (608 هـ/1211م-681 هـ/1282م). ويندرج هذا الترتيب الاجرائي على جملة من الشروط المنهجية تقوم عليها منظومة التصنيف والترتيب عند هؤلاء العلماء الثلاثة، خصوصا فيما تعلق ببليوغرافيا كتب أبي بكر الرازي، إذ وعلى منهجي بين يتجلى البعد الإزدواجي للتصنيف الببليوغرافي الذي يفصل أعمال الرازي بين صنف علمي محض (طبي، كيميائي، فلكي) وبين صنف فلسفي ميتافيزيقي (أنطولوجي، أخلاقي، ثيولوجي). ولهذا ارتأينا الاعتماد أولا على جادت به تحليلات الفلكي أبي الريحان

البيروني صاحب كتاب: (ما للهند من مقولة مرذولة أو مبتذلة) في بيان طبيعة هذا الاتجاه الثنائي الذي اعتمده في ذكر ثبت عناوين كتب الرازي، خاصة عناوين الكتب التي لها صلة بنظرية مبادئ الكيان

(العظمة، 2001، صفحة 93)

ويجدد الذكر هنا أن البيروني من فلاسفة الإسلام الذين تمسكوا بمواقفهم النقدية اتجاه دور العقل وأهمية التفكير الحر والخطاب الفلسفي المنتور. حيث أثير حول آرائه الميتافيزيقية المتعلقة بحدوث العالم وفساد الكون جدل كثير خاصة بين الأوساط اللاهوتية السائدة حينها. وقد وافق الى حد بعيد آراء الرازي فيما يخص مبدأ الوجود الواحد، وأن هناك موجودات توجد على أساس الضرورة الاعتباطية، كما أنه آمن بفكرة الوجود المتقدم، وهو الرأي المتضمن معناه في نظرية الرازي الموسومة ب: (قدم المبادئ الأولى للكون). من هنا يتبين لنا البيروني كان الى جانب الطبيب الرازي مجددان في مبحث الفلسفة الإلهية، وذلك فيما تعلق بتصورات فيض الخير المحض من جهة، وفي مسألة حدوث الاشياء والموجودات حدوثا عليا (السببية) من جهة اخرى.

وبالاستناد إلى مصادر إسلامية أخرى يمكن التأكيد على الموقف المزوج لفلسفة الأخلاق عند الرازي، إذ يرى الباحث مصطفى موالدي، أن أهم الإحصاءات الخاصة بثبت عناوين الكتب الاخلاقية توجد في كتاب: (الفهرست) لابن النديم (ت 380هـ / 990م)، والذي يعتبر أول من عمل على وضع قائمة لكتب ومؤلفات أبي بكر بن زكريا الرازي، إذ يعتبر من أبرز من ترجموا لسيرة هذا العالم الجليل، انطلاقا من منهج تاريخي مقارنة يرى ابن النديم أن الرازي الطبيب كان أول من ابتكره في مجال الدراسات الأكسيولوجية. فمن خلال الفهرست يمكن التعرف على الارهاصات الكبرى لطبيعة التفكير الفلسفي عند الطبيب الفيلسوف، إذ يذهب ابن النديم في هذا السياق للقول، بأن قائمة كتب الرازي التي أوردها في كتابه وردت استنادا إلى ترتيب صاحبها نفسه. لهذا فإن الأستاذ موالدي اعتمد عليها في دراسته واعتبرها من بين أهم المرجعيات الإجرائية اللازمة في مثل هكذا دراسات تراثية.

يحاول موالدي في هذا الإطار أن يؤكد للقارئ أهمية اتباع ترتيب ابن النديم، والنظر في ثبت توصيفها في ضمن المجموعة التي تنتمي إليها أعمال الرازي، لأنها بهذا تكون قريبة إلى التصنيف الحقيقي الذي كان يريده صاحبها حين هم بتأليفها وتدوينها. هنا يصرح الطبيب الرازي على سبيل المثال بالعبارة الآتية: "أما في باب العلم فمن قبل أنا لو لم تكن عندنا منه إلا القوة على تأليف مثل هذا الكتاب، لكان ذلك مانعا عن أن يمحى عنا اسم الفلسفة فضلا عن مثل كتابنا (في البرهان)، و(في العلم الالهي)، و(في الطب الروحاني)؛ وكتابنا (في المدخل الى العلم الطبيعي) الموسوم ب: (سمع الكيان)، ومقالتنا (في الزمان والمكان والمدة والدهر والخلاء)".

(الرازي أ.، رسائل فلسفية، 1982، الصفحات 108-109)

ويمكن أن نلخص أهم المسائل التي تناولها الرازي في هذه المؤلفات، حسب ما ورد في جوامع مؤرخي السير والتراجم حيث تشكل مسألة حدوث العالم وقدمه، أبرز المسائل الفلسفية التي أحاطها العلماء والمتكلمون بكم هائل من المناقشات الجدلية تضمنتها رسائله الفلسفية. فنظريته الميتافيزيقية التي تعنى بإثبات وجود قدماء خمسة، (الواحد، النفس الكلية، المادة، الزمان، المكان) تعد بمثابة نقد جذري لتجاوز كل الخطاب الفلسفي واللاهوتي السائد حينها والقائم على الثنائيات (الوجود، العدم- النفس، المادة- الوحدة، التعدد)، وكذا تجاوز منظومة التصورات والأحكام النقلية الجامدة. على هذا الأساس فإن إفراد مثل هذه الرؤى النقدية للفعل الفلسفي عند الرازي، تكمن أساسا في قيمة المحفل البحثي الذي حاول من خلاله إقامة أسس عقلية رصينة لحقيقة التوحيد خارج أسوار الخطاب الديني لأصول الدين. تصور رازوي جريء لا ينم في الحقيقة إلا عن رؤية استشرافية هادفة، ترنو لإعادة تشكيل علاقات أنطولوجية واضحة تنتظم وفقها أسئلة الفكر والمعرفة والقيم. "ذلك أن كل حقيقة فلسفية تقتضي أن يساهم العقل الفطري باستعمال مبادئ الكيان، وإعادة بناء تلك العلاقة الوظيفية المنفصمة بين أزلية القدم وأبدية الحدوث. من خلال ما يسمى رد الصفة الى الموصوف، وليس العكس. فالموجد أوجد القدم، وهو موصوف به؛ وليس كل قدم له موصوف بعينه، إذ أن الخالق أزلي بالماهية، وأبدي بالجوهر، وليس قديما بأي معنى ما، الا من جهة كون صفة القدم هي صفة مضافة لا غير" (الرازي أ.، 1982، صفحة 109)

وحسب الدراسة السالف ذكرها يُصنّف الطبيب الرازي في جملة علماء الطب والموسيقى قبل كل شيء، حيث يقول ابن النديم: "وقد استقصيت ذكره في أخبار الطب، وكان يرى حقيقة الصناعة؛ وقد ألف في ذلك كتبا كثيرة، فمنها: كتاب يحتوي على اثني عشر كتابا وهي: كتاب (المدخل التعليمي) وكتاب (المدخل البرهاني) وكتاب (الأبيات)، وكتاب (التدبير)، كتاب (الحجر)، كتاب (الأكسير)، كتاب (شرف الصناعة)، كتاب (الترتيب)، كتاب آخر بصيغة الجمع (التدابير)، كتاب (نكت الرموز)، كتاب (المحبة)، كتاب (الحيل)" (ابن النديم، المصدر السابق، ص. 504). وله أيضا كتب أخرى في الفلسفة والعلم الطبيعي، حيث ألف كتابا بعنوان: (كتاب أنابو الى فورفوريوس في شرح مذهب أرسطو طاليس في العلم الإلهي)، وهو كتاب مفقود لفورفوريوس الصوري (Porphyre Tyr de (304 -233) في اللاتينية يسمى (أبامون). ويفترض حسب ابن النديم أن يكون يامبليخوس (Jamblique) (245م -325م)، قد استتر وراء هذا الإسم تجنباً لاضطهاد رجال الدين، الذين أثار حولهم الشكوك وشجب من خلاله شعائهم وكهانتهم.

وهذا الأمر قد أشار إليه كل من بول كراوس في تحقيقه لرسائل الرازي الفلسفية، وسلمون بينس في دراستهما المفردة عن مذهب الذرة عند فلاسفة الاسلام. إضافة لذلك فقد وردت أيضا انشغالات عدة تخص تعدد عناوين كتبه

الطبيعية والإلهية، ومن تلك العناوين التي أثارت جدلا واسعا نسبة كتاب: (العلم الإلهي)، فإذا ما حاولنا تتبع التسلسل المنهجي المتبع في فهارس المؤرخين الأوائل كابن النديم وأبي الريحان البيروني وغيرهم من مؤرخي الاسلام، سنجد على سبيل المثال انشغالهم الكبير حول نسبة كتاب: (الحاصل في العلم الإلهي) أو (العلم الإلهي الكبير) أو كتاب: (الصغير في العلم الإلهي)⁽³⁾. (بينس، 1946، الصفحات 84-85). ولنا نعلم مبتغى ذلك التعدد، ولما وجد هذا الاختلاف في عنوان كتاب الرازي (العلم الالهي)، إذ لا يمكن الجزم بتاتا، إن كنا نعتبره كتابا واحدا أم هو عدة كتب لموضوع واحد.

إذ وبالعودة مرة أخرى إلى ترتيب ابن النديم، نكتشف أن صاحب الفهرست، صنف شخصية الرازي ضمن خانة أطباء الفلاسفة، الذين ابتكروا لأنفسهم مذهباً فلسفياً خاصاً بهم خارج تخصصهم، وبأن كثيراً من المسائل الميتافيزيقية التي تناولها هؤلاء كانت محض هرطقة؛ حيث ذكر ابن النديم في سياق تحفظي منكر على الطبيب تأدبه وعن الفيلسوف تأمله، ذلك أن من أسباب التكرار موافقه المتناقضة وغير المتسقة، وكذا عدم فهمه لخبايا الفلسفة الميتافيزيقية في جوانبها الإلهية. إضافة إلى ذلك يقر ابن النديم بأن الرازي لم يكتف بصناعة التطب ولا بتدريس وتعليم فقط، بل مهتماً بجوانب أخرى لا تقل أهمية عن هذه الوظائف والصناعات فقد كان ذاعاً صيته في باب التأليف والتصنيف، فكان الرازي بحق مُكثراً للكتابة والتدوين نضاحاً قلمه في ذلك، حتى عد ضمن قوائم النقال والترجمان والرواة الموسوعيين، ولنا في رسالة الفهرست التي ألفها البيروني لاحقاً حول عناوين مؤلفات الرازي خير مثال عن الوصف. (كراوس، 1936، الصفحات 46-47)

2.2 القراءات النقدية الحديثة والمعاصرة لفهرست كتب الرازي:

يبقى علينا في هذا المقام أن لا ننكر جانباً آخر تميزت به أعماله الفلسفية العلمية والعملية، وهو الجانب الأبرز من الموقف النقدي الذي تبناه الرازي اتجاه مسائل الوجود المطلق والوجود النسبي، واتجاه المعرفة الكلية والمعرفة الجزئية، واتجاه الأخلاق اللذية والقيم الروحانية. فالمتمأل في أعمال الرازي خاصة الرسائل الفلسفية، والتي تبين وبشكل لافت للنظر عن الدور الريادي لهذا الفيلسوف العقلاني في اعلاء فضيلة النقد المنهجي وإخضاع الفكر الانساني برمته لطائفته، واعتباره خاصية جامعة مانعة للفكر الفلسفي العربي الاسلامي في القرن الرابع هجري

(3) - يقول كراوس: (لم يصل إلينا شيء من تلك المصنفات عامة ومن (كتاب العلم الإلهي الكبير) خاصة رغم ما كان له من شأن كبير في تاريخ الفلسفة الإسلامية. حتى إن كثيراً من مفكري الإسلام رأوا من أن واجبهم، أن يردوا عليه، منهم ابو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي الكعبي رئيس معزلة بغداد (ت 319)، وصاحب كتاب (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة). كان معاصراً للرازي وألف عدة نقوض على كتاب العلم الإلهي، تحدى الرازي إلى الرد عليها. (الرازي أ.، 1982، صفحة 167)

الموافق للتاسع ميلادي. وفي هذه المرحلة سيمثل نقد التراث أساس عمليات ترصين فلسفة ميتافيزيقية ذات طابع إنساني محض، منفتح على أفق التفكير العقلاني الحر. لكنه لا يستثني في منظومته عن الاعتقاد بأيقونة الإيمان والخلص الروحاني، وبأن الباري (الله) متقدم على هذا العالم تقديماً ذاتياً لا محال، على غرار ما قد سبق إليه قول أوائل علماء الإسلام من متكلمين وفلاسفة، خاصة في باب التوحيد على منهج المتكلمين من المعتزلة، وإن كان خطابهم الفكري قد استعملوا فيه ألفاظاً دينية محضة لبناء نظرياتهم الفلسفية على حد تعبير سلمون بينس.

(بينس، 1946، صفحة 38)

في هذا الجانب الفلسفي الديني يعتبر ابن النديم صاحب الفضل في إيراد ثبت لقائمة عناوين مؤلفات الرازي في هذا الجانب الفكري للطبيب الفيلسوف، غير أنه لم يكن الوحيد الذي وثق لنا هذا فيما تعلق بالسيرة الفلسفية والطبية لهذه الشخصية الفريدة؛ رغم أن المحدثين يؤكدون في أبحاثهم بأن من ابن النديم من مؤرخي الإسلام الذين كان لهم فضل في إبراز شخصية الطبيب الرازي، استناداً على طريقتهم في عرض سيرة هذا العلم بناء على قوائم أسماء كتبه ورسائله. وقد ذكر مؤرخ الهند والسند أبو الريحان البيروني في أحد مؤلفاته، أنه كتب كتاباً كان أوصاه صاحب له بتأليفه لحاجة اقتضت أن يطلب الكتاب لأجلها. وقد وردت هذه الرواية في مقطوفة نثرية للأستاذ جزيل عبد الجبار الجومرد استقاها من أقوال البيروني نفسه. رغم أن الباحث يفصح في الأخير وبعد تحقيقه المفرد لفهرست أبي الريحان البيروني، بأنه يتوافق مع رأي المفكر عبد الرحمن بدوي، الذي يؤكد لنا بأن "بقية الكتب التي ورد ذكرها في الفهرست، فأكثر تقدير أنها فقدت ولم يعثر عليها، وإن وجد بعضها، فإنه لم ينشر بعد.."

(بدوي، من تاريخ الإلحاد في الإسلام، 1993، صفحة 233)

ولئن كنا لا نجزم هنا الأمر قطعاً في ظل الدراسات الجديدة التي تظهر هنا وهناك خاصة الأعمال الرائدة في تحقيق التراث العربي الإسلامي على يد ثلة من الباحثين المعاصرين على غرار الباحث المصري خالد حربي. والدكتور مصطفى موالدي والسيد صالح حمارنة، إذ وعلى خطى هذا الأخير الذي يؤكد لنا في دراسته القيمة المقدمة ضمن أعمال أحد المؤتمرات الدولية بسوريا منذ عقد من الزمن، والتي عقدت بشأن العلوم الحضارية عند العرب المسلمين، أهمية التحقيق الذي أثير حول معرفة تفاصيل البواعث التي أدت بهذا الصاحب الذي أوصى البيروني، وطلب منه مراسلته بفهرست يتناول ثبناً لعناوين كتب الطبيب الرازي. رغم أن الدكتور حمارنة يلاحظ إثر قراءته الوصفية لكتاب (فهرست البيروني)، بأن الكتاب عبارة عن رسالة موجزة أرسلها إلى شيخ فلاسفة الإسلام علي ابن سينا، أثناء تأليف هذا الأخير لكتاب القانون في الطب، تأسياً بالرازي صاحب موسوعة الحاوي في الطب.

وحسب ما تشير إليه الدراسة التي أقيمت بمناسبة إحياء ذكرى الرازي، بعنوان: (الرازي في مراسلات البيروني وابن سينا)، فإن قائمة عناوين الكتب وردت في شكل مراسلات، كانت قد جرت بين البيروني وابن سينا في غير مرة واحدة بل تعددت المرات. وأن أبرز الانتقادات التي وجهت للرازي كانت ضمن هذه المراسلات، دارت حول أمور مختصة بالفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة، والفلك والرياضيات والطب وغيرها" (الحمارنة، 1976، صفحة 46). كما يذكر الدكتور جزيل في دراسة أخرى تناولت الجوانب التحليلية لشخصية الطبيب الرازي "بأننا حين نتطرق لدراسة مثل هذه الشخصيات، فإننا نجد قوائم أخرى لكتب الرازي الطبيب، وضعها مؤرخون مسلمون في كتبهم مثل علي بن يوسف القفطي صاحب كتاب: (تاريخ الحكماء)، وكذلك لصاحب كتاب: (عيون الانباء في طبقات الأطباء) موفق الدين ابن أبي أصيبعة" (أصيبعة، 1965، صفحة 46).

فقد ترجمنا هذين العالمين الجليلين لمؤلفات الرازي ضعف ما بلغ توصيفه في فهرست ابن النديم، ولهذا تأتينا هاتين القراءتين في مرتبة أقل من حيث الاهتمام، فتأتي قراءة ابن أبي أصيبعة مثلا في مرتبة أدنى، في مقابل ترجمة البيروني كما سبق الذكر، وتأتيان معا بعد قراءة ابن النديم وترجمتها لأثار ابي بكر بن زكريا الرازي الطبيب الفيلسوف. ثم إن هذا الرأي الذي نقبسه من دراسة الدكتور جزيل عبد الجبار، والمتعلق بمعرفة آليات هذه القراءة التحليلية لبيبلوغرافية عناوين كتب الطبيب الرازي، تكمن أولا في أهمية العناوين التي نحن بصدد التعرف عليها ومعرفة قيمتها الحضارية كتراث علمي وفلسفي رائد يحتذى بمثاله، وثانيا التعرف على طريقة من طرق التأليف والتوصيف لأسماء الكتب والرسائل العلمية ذات الأهمية البالغة في إعادة بناء تصوراتنا الحضارية ومسايرتنا للعلوم المعاصرة. يرى الدكتور جزيل أن مثل هذه الطريقة أجدر بأن تدفع بالبحث العلمي عندنا نحو نتائج جديدة فيما تخص أصول فكرنا الفلسفي والعلمي، وترسم لنا معالم جديدة لمعرفة أوسع نتوجه بها لدراسة تاريخ العلوم عند العرب المسلمين بشكل موضوعي ودقيق في مستوى تطلعاتنا الحضارية.

إن مثل هذه القراءات التحليلية تنحو منحنا جديا يضعنا على مرئى من مفترق الطرق، حيث يتقاطع أكثر من طريق معرفي في نقطة المركز، ليحصل تشطي طردى للبواعث والمنطلقات، وتتهادى أما الفكر الغايات والمنتهايات بسبب مرجعية ثقافية أو دينية أو أيديولوجية معينة، قد تتشابه المضامين وقد تختلف عن بعضها موضوعا ومنهجيا. إذ تقوم كل مرجعية على نمط خاص بها يمكن أن يحدد معايير منهج الوصف التحليلي لعمل من الأعمال، وبالتالي البحث فيما قد تتضمنه كلا من السيرة والترجمة على حد سواء. ورغم أننا نعرف جليا أن أكثر مؤلفات هؤلاء العلماء على غرار الطبيب الرازي مفقودة ولم يتم العثور عليها جميعها لحد الآن، وأنه ليس لدينا دراية بها إلا فيما ذكرته أمهات الجوامع والمعاجم التي خصصت في الأدب والسير والتراجم باعتباره علما حضاريا؛ حيث يؤكد

لنا الأستاذ عبد الجبار جزيل بأنا لا نعرف مضامين كثير من كتب العلوم الحضارية إلا من خلال عناوينها الموسومة في تلك الجوامع، أما بالنسبة للكتب التي حصلت عناوينها في هذه الجوامع على غرار عناوين كتب الرازي، فقد تفرعت في الغالب إلى أربع فروع كبرى، وأن كل واحدة من هذه الفروع يشمل القوائم التي كانت لها سمتها الخاصة، أو التي تبرز جانباً من جوانب الحكمة الإنسانية في فكر الرازي.

غير أن الباحث عزيز العظمة، يخالف هذا الرأي وينحو الى القول بغير ذلك مفترضا صحة ثبتي ابن النديم والبيروني والذان بيدوان بالنسبة له أقرب إلى الصحة، حيث اندرج تحتها جل المؤلفات الطبية والفلسفية، والتي تنقسم على العموم لثلاثة أقسام كبرى هي: قسم العقائد وقسم علوم الحكمة وقسم علم الأخلاق أو بما يطلق عليه (كتاب ذم الهوى) (العظمة، 2001، صفحة 08). ويمكن في هذا السياق أن نشير للموقفين ونستشف الهدف من إيراد قوائم كتب الرازي بالنسبة لمؤرخي الإسلام علة العموم، والذين أبدينا حولهم على الأقل موقفاً إيجابياً تبعاً لقائمة مؤرخ الأمة ابن النديم والتي اعتبرها أغلب النقاد المعاصرين الأجدر بالاعتماد حسب قول الاستاذ الحمارنة، فيما يخص ترتيب ثبت عناوين مؤلفات وأعمال الطبيب الرازي وفق ما وضعه صاحبها أصلاً. نعم لقد اعتبر أكثر من مفكر معاصر هذا الرأي مقبولاً لاعتبارات موضوعية تستند على دلائل تاريخية معقولة ومنطقية. فالباحث علي الجومرد يعتبر ابن النديم من الشخصيات العلمية التي عاصرت حياة لرازي. لذلك فإن قابلية الاعتماد عليها كانت في المقام الأول، لهذا فقامت ابن النديم مثلت محور الدراسات النقدية لبليوغرافيا عناوين وكتب العلوم الحضارية.

وبالنظر لما نجده من مرافقة عيانية تمت لصاحب الفهرست في مختلف أطوار تأليفه لهذا الكتاب، حيث ضمَّه ذكر موسع تلك لعناوين وضعت لكتب الفلسفة والعلم الإلهي، وذلك من خلال ذكر ترتيبها بعد مؤلفات طب الرئيسية التي ألفها الطبيب في غمرة حياته، باعتبار أن الطب كان مبدئاً اهتمام الرازي قبل أن ينحو منحى التدريس والتعليم فالتأليف والتصنيف في علوم الحضارة كالفلسفة والكيمياء وعلوم الإلهيات. وجملة القول هنا أن ابن النديم باعتباره مؤرخاً للرازي الطبيب، انتهى إلى موقف مؤسس على قواعد منهجية ناجزة عن بحث تاريخي استقصى بواسطته التسلسل الكرونو- معرفي للسير والتراجم، بحيث نلاحظ في الفهرست بأن ابن النديم قد أحصى من خلال هذا المنهج ما يقارب مائة وثلاثة عشر (113) كتاباً، وثمان وعشرون (28) رسالة (النديم، 2009، صفحة 420)

ولإثبات ذلك يمكن أن نستعرض جزءاً من ترجمة الطبيب المؤرخ أبا العباس ابن أبي أصيبعة في كتابه: (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) وأيضاً في كتاب: (طبقات الأطباء والحكماء) لابن جلجل، إلى ما يورده لنا كذلك صاحب كتاب: (تاريخ الحكماء) العلامة جمال الدين القفطي (أصيبعة، 1965، الصفحات 273- 277).
فبالنسبة لكتاب: (في العلم الإلهي)، فيبدو أن التحقيق الذي قام به المستشرق بول كراوس، وإيراده الدليل على نسبته

للطبيب الرازي كان خلاصة دراسة شملت آراء هؤلاء المؤرخين المسلمين السالف ذكرهم، وكذلك ما وجدته في رأي أبي الريحان البيروني، وصاعد الأندلسي في (طبقات الأمم). بالإضافة إلى ما أورده الفيلسوف موسى بن ميمون في كتابه: (التلخيص).

لقد أجمع جل هؤلاء الباحثين بأن كتاب: (العلم الإلهي) ليس إلمقالة من المقالات الفيثاغورية الثلاثة، التي ألفها الطبيب الرازي في علم الالهيات. في حين رأى البعض الآخر حسب المستشرق كراوس بأن الكتاب وإن كان يميل في عمومته للفيثاغورية، فإنه ضمّن في ثناياه آراء للحرانيين بشكل ملفت. ومن هؤلاء الفلاسفة الذين اعتمدوا على هذا الرأي نذكر نجم الدين الكاتبي القزويني (600-675هـ)، الذي ذكر أن الرازي إلى جانب آرائه الميتافيزيقية بسط فلسفته في اللذات والآلام" (الرازي أ.، 1982، صفحة 180).

3. السمات الموسوعية في العلوم الحضارية الإسلامية، الطب والفلسفة:

من أشهر كتبه الطبية المبسطة على الاطلاق كتاب: (الجامع) أو (الحاوي في الطب)، وهو من أعظم مؤلفات الرازي في علم الطب وصناعته، وهو موسوعة طبية شاملة لكافة المعارف والعلوم الطبية المعروفة حتى عصره، والجامع كتاب يبرز فيه الرازي أقل أطباء عصره تمسكاً بأراء الطب القديم، وأكثر الكتب التي يبرز الرازي فيها علماء الطب القديم وممارستهم إياه.

1.3 علوم صناعة الطب، كتاب الجامع (الحاوي في الطب):

ترجم كتاب الحاوي إلى اللاتينية الطبيب اليهودي فرج بن سالم الملقب ب: فيراجيوس (Salim ben Faraj) (1230م) بأمر من شارل الأول ملك صقلية (1279م)، واستبدلت بكلمة: الحاوي مقابلها باليونانية (Continens). وبالطبع تم نشر عدد كبير من هذا الكتاب في الفترة الأخيرة لما له من أهمية لاتزال تعجز الاطباء عن فهم كثير من المسائل المتعلقة الصحة الجسمانية والنفسانية للإنسان. طُبع المؤلف لأول مرة، في بريشيا بشمال إيطاليا سنة (891هـ/ 1486م). وهو أضخم كتاب طُبع بعد اختراع المطبعة مباشرة، كان مطبوعاً في خمس وعشرين (25) مجلداً، ثم أُعيد طباعته عدة مرات في البندقية بإيطاليا في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي (10هـ/ 16م). يذكر لنا المؤرخ ماكس مايرهوف (Max Meyerhof) - (1874- 1945م) أنه في عام (1500م)، كان هناك خمس طباعات لكتاب الحاوي مع عشرات الطباعات الاخرى لأجزاء منه. وقد نشر ماكس مايرهوف دراسة لفصل من الحاوي، بعنوان: (ثلاثة وثلاثون حالة سريرية للرازي). (بدوي، موسوعة المستشرقين، 1993، صفحة 311) والكتاب في الحقيقة عبارة عن كشّاف موسوعي أبان عن خصائص منهج التفكير العلمي والفلسفي وأسس لمقدمات منهج التشخيص في الطب الجسماني والروحاني، وأقرّ مبادئ التصنيف في الفلسفة وعلوم الإنسان

والعمران. إذ لا تخرج خصائص المنهج الفلسفي عن قواعد الممارسة العلمية لدى الطبيب الرازي، كما لا يشذ مذهبه الفلسفي عن الاطار العام الذي سارت في غماره أغلب مذاهب الفكر الفلسفي في الاسلام، والمتمثل في الدور الفلسفي الأخير للأفلاطونية المحدثة، خاصة الأثر الفلسفي الذي خلفته المذاهب الفكرية والحرائية، وذلك الدور المهم الذي لعبته في نقل وترجمة الموروث الطبي والفلسفي الهلنستي؛ وهو ما بيّنه المستشرق بول كراوس، في مؤلفه الموسوم بـ: (رسائل فلسفية لأبي بكر لرازي)، خاصة الجزء الأول الذي تم تحقيقه أواخر الخمسينات، وطبعه بداية الثمانينات على يد مجموعة من المؤلفين، في حين لا يزال الجزء الثاني قيد التحقيق والنشر.

2.3 كتابي المنصوري والطب الروحاني:

ذكر محمد بن اسحق بن ابي النديم في تراجمه التي رتب فيها كتب الطبيب الرازي، قولاً مفاده: "إن الرازي الطبيب كان ينتقل في البلدان، وبينه وبين منصور بن اسماعيل صداقة وألف له كتاب المنصوري" (أصيبيعة، 1965، صفحة 310). وقد ذهب أبو حاتم شيخ الإسماعيليين في هذا الصدد للقول بأن الرازي قد خصص كتاب المنصوري للطب الجسماني دون غيره، حيث رصد في جل أبوابه ما يعنى بذكر علل البدن، وبيان أدوائها؛ بينما كتابه الآخر في الطب الروحاني، فقد اختصه الطبيب بإصلاح الأخلاق وتلقيحها. وهنا يقدم لنا المفكر محمد عابد الجابري عدداً من الملاحظات القيمة تلخص لنا مضمون الكتاب، حيث يقول: "الطب الروحاني أو الاخلاق يبدو هنا فعلاً أنه قرين الطب الجسماني. ليس على صعيد العنوان وحسب، بل على صعيد النموذج الاستمولوجي: إذ يتجلى هذا على صعيد الوظيفة، أولاً: الطب الجسماني يعالج الجسم العليل، والأخلاق هنا موجهة لمعالجة النفس المريضة. ومن هنا صيغت عناوين فصول الكتاب بعبارات السلب: قمع، دفع، اطراح، صرف، وذلك باستثناء الفصل الأول (في فضل العقل ومدحه)، فقد جاءت صبغة عنوانه بالإيجاب. لأن العقل هو الطبيب".

(الجابري، العقل الأخلاقي العربي، 2001، صفحة 294)

إضافة لذلك أورد أبو حاتم الاسماعيلي أقوالاً كثيرة بشأن الدوافع العلمية والذاتية التي قادت صاحب المؤلفين لتأليف هذين الكتابين، إذ يشير في فحوى كتابه بأن الرازي كان رجلاً متناقضاً مع نفسه، خاصة فيما تعلق بترتيب مسائل كلا الكتابين. فقد جعل موضوعهما عدلين لبعضهما البعض في حيث طبيعة الموضوع. وقد أشار عبد الحميد الكرمانى في معرض حديثه عن هذا الكتاب، تبعاً لما قاله شيخ الإسماعيلية أبو حاتم، بأن رسالة الطبيب الرازي في الطب الروحاني، إنما هي مجزوءة من الطب الجسماني العام. وهو ما لخصه لنا بول كراوس على هامش تحقيقه، حينما أشار بدوره بأن طبيبنا وضع كتاب: (الطب الروحاني) إكماً للكتاب الأول والموسوم بـ: (المنصوري)، والكتاب المقصود بالنقد الاسماعيلي، خاصة عند الإمام الكرمانى هو كتاب: (الطب الروحاني)

(النديم، 2009، الصفحات 357-359)

وفي سياق مناقشة أخرى أفردتها ذات المستشرق بول كراوس بخصوص صلة الرازي بالكرماني، فإننا نحاول تمثل تلك التقاطعات المعرفية المنفتحة على تصورات النقد الموضوعي لميراث الطب الانساني برمته، وبالتالي محاولة اعادة بناء الأفكار نسقيا من أجل التحرر من ريق الدوغمائية التي تحاصر ذواتنا المعرفية في سبيل تقدم المعارف الانسانية. ولربما على هذا الأساس نعتقد أن الكرماني قد غاب عنه حسب كراوس، مراد ما يريد الرازي ايصاله لنا بخصوص هذه مسألة وحدة العلوم الحضارية من حيث المنطلق ومن حيث الأسس المنهجية. فقد تبين لنا أنفا كيف أن أبو حاتم الرازي الإسماعيلي، لم يكن نقده لكتاب الطب الروحاني موجها إلا للمستوى الشكلي المحض، خاصة فيما تعلق بجوانبه البنائية والشكلية. دون أن يثبت لنا بأن الطب الروحاني في أساسه ليس له موضوع مستقل عن الطب الجسماني. وهو ما قد يكون غائبا عن ذهن الامام الكرماني حينما همّ بنقد الكتاب. حيث يقول استنادا لحاشية بول كراوس: "وإذا كان الخطأ مستمرا عليه فيما وسم به كتابه، لخلوه مما يكون به من ذكر الأمراض النفسية والأمور الميلة لها عديلا للكتاب المنصوري. الجامع لذكر الأعلال وأدويتها، فغير واقع ما اختص وقوعه من الانتفاع به وشموله، ولا فائدة في قراءته" (الرازي أ.، 1982، صفحة 16). وما يمكن أن نخلص إليه جملة عامة، هو أن كتاب: (الطب الروحاني)، كتاب معروف بطب النفس. وأن الغرض منه إصلاح الأخلاق، وهو يتكون من عشرين فصلا على حد ما أورد ابن أبي أصيبعة. (أصيبعة، 1965، صفحة 315)

3.3 في علم الكيمياء (سر الأسرار) كتاب اللغز؟

يصنف الكتاب في مجال علم الخيمياء، ولا يخفى عن أحد أن للرازي الطبيب باع كبير في هذا المضمار، إذ تذكر جوامع التراجم والسير كتابا نفيسا ينسب له هو (كتاب سر الأسرار)، حيث ضمنه أسس المنهاج الذي سار عليه في إجراء تجاربه. فكان يبتدئ بوصف المواد التي يشتغل بها، ثم يصف الأدوات والآلات التي يستعملها، ثم الطريقة التي يتبعها في تحضير الوصفات، وقد سبق ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست وكذا ابن أبي أصيبعة في كتابيهما هذه المناهج والطرق التجريبية التي كان يتبعها. غير أن الملفت للنظر في هذا الكتاب، هو أنه استطاع أن يصف أكثر من عشرين جهازاً، منها الزجاجي، ومنها المعدني وصفا دقيقا، على غرار ما نجده في الكتب الكيميائية الحديثة والمعاصرة المعروفة لدى أهل الاختصاص، والتي يعتمد عليها في مجال استعمال التقنية المخبرية واختبارات التجريبية. هذا بالإضافة إلى أن الكتاب يستعرض لنا قدرة الرازي على شرح الكيفيات التي يتم بها تركيب الأجهزة المعقدة، مع إفاضة في الشروح والتعليقات المتعلقة بتلك الكيفيات التقنية للتركيب والتفكيك.

(طوقان، 2002، الصفحات 112-113)

4.3 في كتب الفلسفة كتاب الشكوك على فاضل الأطباء جالينوس (Claudius Galenus) (129 - 216م):

ظهر هذا الكتاب في القرن التاسع الميلادي، وفيه تجلت قدرة الطبيب الرازي على النقد الموضوعي البناء، ودحض الآراء العامية بالطرح المنهجي لحالات التشخيص المرضي، ولبعض عناصر العلاج عند جالينوس أشهر أطباء اليونان، وقد أسماه: (الشكوك على فاضل الأطباء جالينوس) وهذا المؤلف تم تحقيق نسخة مخطوطة منه على يد الأستاذ لبيب عبد الغني، وهو صادر مؤخرًا عن دار نشر الكتب والوثائق القومية بطهران، وقد ضمن فيه الطبيب الرازي نقداً لاذعاً لجالينوس، والتي أوردها تبعاً في عديد من رسائله الطبية، حتى أنه ذكر ذات مرة أنه لم يورد أغلبها في كتاب الشكوك، لعدم اتساع المقام. كما أشار إلى أنه لا يريد لكتابه هذا أن يطول بكثره الشكوك. (الرازي أ.، الشكوك على فاضل الأطباء جالينوس، د.ت، صفحة 81). ولم يستثن الرازي في شكوكه العلمية آراء أبرز أطباء الحضارة اليونانية، وفي مقدمتهم أرسطو وإقليدس وأبرقلس، فضلاً عن انتقاداته لكثير من السابقين عليه والمعاصرين له من مفكري الإسلام. وللرازي ردود على الجاحظ والمسمعي والناشئ الشيعي، والكعبي والكيال في الإمامة، وابن جرير الطبيب؛ وأبي يعقوب الكندي، وأحمد بن الطيب السرخسي، وعلي بن شهيد البلخي. كما جرت مجادلات بينه وبين المسعودي، بالإضافة إلى ردوده على الثنوية والمنانية والاسماعيلية. (الرازي أ.، 1982، الصفحات 191-192).

لقد يتوجه حكماء الطب والفلسفة في الحضارة الإسلامية، على خطى أبقراط الحكيم ومدرسته الأخلاقية، والتي استمرت في صورتها الرواقية المعدلة بخطى ثابتة طوال القرون الهجرية اللاحقة، حتى بلغت شأوها مع المدرسة الجالينية على عهد الحضارة الإسلامية - نسبة لجالينوس العرب الرازي الطبيب-، الذي طالما أبدى إعجابه بما خلفه أطباء وفلاسفة اليونان السابقون، وقد كان فاضلاً في أخلاقه العلمية إذ كثر اعتذاره لهم بين جنبات رسائله كلما هم بنقد آرائهم ونظرياتهم، لأن فحص المسائل والتدقيق في صحتها يستوجب على المشتغل بالطب والفلسفة نقد ما خلفه السابقون لحكمة كونية تجعل من المعرفة الإنسانية معرفة تراكمية بناءة.

5.3 علوم الزمان والمكان (كتاب في المدة والخلاء والملاء):

نسب بعض رواة التراجم المتأخرين إلى الطبيب الرازي كتاباً موسوماً بـ: (القول في القدماء الخمسة)، فنسب بعض المؤرخين السلف القول بقدم البارئ والنفس والهيولى والمكان والزمان، إلى الصابئة الحرانيين. وهذا الرأي ورد في كتاب: (زاد المسافرين) للإسماعيلي ناصر خسرو على حد ما ذهب إليه بول كراوس. حيث أشار في القطعة الرابعة والخامسة من الفصل الحادي عشر من كتاب: (العلم الإلهي). وأشار إليه أيضاً المستشرق سلمون بينس، واللدان أبرزاً في تحقيقهما أن هذا القول ظاهر وبيّن، وهو واضح للعيان في فلسفة ناصر خسرو الذي نقض قول

الرازي في قوله بالقدماء على سنن مذهب الصابئة الحرائية، وعاب عليه رأيه هذا. ويرجح هنا بول كراوس أن كتاب:(القول في القدماء الخمسة)، المذكور في السيرة الفلسفية، ليس إلا كتاب:(العلم الإلهي). والدليل الذي يستند إليه المستشرق هنا، يعود في الأساس إلى ما وجدته مبسوطة في كتاب:(تلخيص المحصل) لفخر الدين الرازي. حيث ذكر إمام متكلمي الإسلام المتأخرين قولاً مثل هذا منسوباً للحرنانيين: "أقول هذه الحكاية مذهبه، وما يصلح لأن تكون دلائلهم عليه. ومال ابن زكريا الرازي الطبيب إلى ذلك المذهب، وعمل فيه كتاباً موسوماً، بالقول في القدماء الخمسة". (الرازي أ.، 1982، صفحة 191)

ثم إنَّ الكتاب نفسه، هو ما يسميه ابن القفطي، على حد ما افترضه سلمون بينس، كتاب:(في السيرة الفلسفية). والذي ورد فيه ذكر كتاب:(في الزمان والمكان والمدة والدهر والخلاء)، ثم قال عنه بينس معللاً نسبة هذا الكتاب هذا الكتاب بأن هذا الرأي ذكره البيروني وابن النديم (بينس، 1946، صفحة 86). وكذلك يمكن أن نستدل برأي المستشرق لويس ماسينيون الذي أشار إلى الكتاب، وقال برأيه جاء عكس ما كان متداولاً عند المستشرقين السابقين، فقد ذكر في كتابه:(الحلاج) أن المبادئ الخمسة القديمة عند الرازي هي: البارئ، والنفس الكلية، والهيوولي والمكان بمعنى الملاء وأن الزمان يكافئ الخلاء. حيث يقول المفكر حسام الدين الألوسي، في هذا السياق: إنَّ هذا الرأي يبقى محل نظر وتمحيص. إذ يشير في هذا المنحى إلى ملاحظة مهمة هي: "أنه لا يعلم المصدر الذي اعتمد عليه ماسينيون، حتى وضع مثل ذلك التكافؤ اللانطقي بين رسالته في السيرة وكتابه في الزمان والمكان، واستناداً إلى ما يمكن أن تبين عنه مقارنة قول الحرائيين، مع قول المتصوفة الحلوليين. وكذا آراء كل من الطبيب الرازي، والفيلسوف أبي البركات البغدادي، والرازي أبي حاتم المتكلم. لأن هذا الموقف يناقض سائر هذه المصادر المختلفة، والمعروف عنها اتباعها للمذهب الأفلاطوني الذي يقتصر فيه صاحبه على معنى كلي للزمان، وهو ما يتحرك بانتظام، وأن ما يتحرك بدأ؛ وأن الزمان بذلك بدأ مع العالم المصنوع" (الألوسي، 1977، صفحة 102)

وهناك كتب أخرى، ورد فيها اسم هذا الكتاب، خاصة ما نجده في النصوص التي أوردها سلمون، والذي اعتمد فيه على ترتيب ابن النديم أيضاً، ووفق ترتيب الذي وضعه الرازي لمسألة القدماء الخمسة وهي: كتاب:(الفرق بين ابتداء المدة، وبين الحركات)، كتاب:(الهيوولي الكبير)، كتاب:(العلم الإلهي على رأي أفلاطون)، كتاب:(في تفسير كتاب أفلوطرخس في تفسير طيماوس)، كتاب:(في إتمام كتاب أفلوطرخس)، كتاب:(علة جذب حجر المغناطيس للحديد)، وهذا الكتاب بالمناسبة يشمل رسالة طويلة عن الخلاء، كما أورد ابن أبي أصيبعة ذلك أيضاً (بينس، 1946، صفحة 87). وقد قمنا بتفصيل هذه المسألة في مقالتنا الموسومة ب: (مفهوم القدم عند علماء الكلام وعلاقته بمشكلة الزمان) وهو مقال منشور بمجلة الحكمة (العدد الثامن)، الجزائر عام 2016.

(رضاني، مفهوم القدم عند علماء الكلام وعلاقته بمشكلة الزمان، 2016، الصفحات 146-156)
حيث تطرقنا لإشكالية مفهوم القدم عند علماء المسلمين وعلاقته بمشكلة الزمان في فلسفة الرازي، وحيث عرجنا في هذه المقالة على جملة البراهين والأدلة التي وردت بخصوص إثبات وجود قدماء خمسة عنده، وكيف أنها تمثل مبادئ للكيان، وأسبابا لحدوث العالم. وكيف أنها حسب الرازي، تمثل كيانات أو مبادئ قبلية تكفل للكون خاصيته الأنطولوجية، وفق عمليات احتواء التعدد في الحقيقة الواحدة. ويبدو لنا ترتيب القدماء دليلا ميتافيزيقيا يؤسس لعمليات فيض الخير المحض لدى مدرسة أطباء الفلاسفة في الحضارة الإسلامية. رغم أننا لا ننكر ما لهذه النظرية من أثر في تبلور مذهب الرازي الفلسفي، وكيف يمكن أن نربط تلك الرؤية الميتافيزيقية بالموروث الطبي لدى الرازي ودوره في استئناس فلسفة عقلانية ذات طابع نقدي، وقد بيّنا ذلك أيضا في دراسة أخرى بعنوان: (تشظيات روح الحضارة الإنسانية في الإسلام ونموذج مدارس الطب والفلسفة) نشرت في (العدد العاشر) بمجلة الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة - تيهرت - الجزائر عام 2016.

(رضاني، تشظيات روح الحضارة الإنسانية في الإسلام، 2016، الصفحات 285-301)
وحتى يتسنى لنا بعد ذلك ذكر بقية ما أورده نقاة التاريخ الإسلامي كابن النديم الذي أشاد لنا في كتابه الفهرست، مكانة الطبيب الرازي في مجال التأليف والتفلسف. عناوين كتبه الطبيعية المرتبة على التسلسل الذي وضعه الرازي نفسه. والتي منها: (كتاب على أحمد بن الطيب فيما ردّ به على جالينوس في أمر الطعم المرّ)، كتاب: (الرد على المسمعي المتكلم في رده على أصحاب الهيولي)، ثم كتاب: (الرد على جرير الطبيب فيما خالف فيه من أمر التوت الشامي بعقب البطيخ). كما أضاف ابن النديم إلى تصنيفه هذا ثبوتا ترتيبيا مختصرا، ذكر فيه أنه بعد ترتيب الرسائل الموجزة، ورد كتاب للرازي بعنوان: (في نقض كتاب أنابوا إلى فرفوروس في شرح مذاهب أرسطو طاليس في العلم الإلهي). كتاب: (في الخلاء والملاء وهما الزمان والمكان)، كتاب: (الصغير في العلم الإلهي) كتاب: (الهيولي المطلقة والجزئية). (النديم، 2009، صفحة 309)

4. خاتمة:

إن محاولة معرفة خصائص المذهب الفلسفي عند الطبيب الفيلسوف، ونظرته في بناء منظومة معرفية تجمع بين مقتضيات العلم ومشكلات الفلسفة، استدعت منا عرض نظرة تأملية تحليلية نقدية لبعض ما وقع بين أيدينا من مؤلفاته ورسائله الطبية أو الفلسفية؛ والتي بقيت محفوظة لنا، حيث إن تراث هذا الطبيب المفكر، لا يزال يطرح أكثر من تساؤل وجبه في ظل تلك الحملة الهوجاء التي شنت ضد شخصه وأعماله من طرف عديد من المناوئين والمنتشدين في عصر الضعف، منكرين عليه اتصافه بالحكمة الفلسفية.

1- أدى طمس آثاره الفلسفية عنوة في هذا السياق، وباسم الدين في كثير من المرات بسبب ذلك الشعور المرتاب الذي تنامي اتجاه العقل والعقلانية. مما أدى في الأخير إلى التتكر المجحف لفلسفته الميتافيزيقية، خاصة آراؤه في نظرية القدماء الخمسة. وكذلك هو حال كثير من فلاسفة وعلماء المسلمين، الذين لا تزال ثنوي منجزاتهم العلمية والفلسفة تحت دثار التتكر والانتكار. وعليه فليس علماء وفلاسفة الإسلام طائفة من الخلق منعزلة عما سواها، على حد تعبير المفكر مالك بن نبي، فهي قادرة على أن تكمل تطورها داخل وعاء مغلق، بل لأنه يمثل في رواية الإنسانية، دورين يقوم بهما في وقت واحد، دوره ممثلاً، ودوره شاهداً؛ ويضيف مالك بن نبي أن هذا الاشتراك المزدوج يفرض عليه واجب التوفيق بين حياته المادية والروحية وبين مصائر الإنسانية (نبي، 2002، صفحة 165).

2- التأكيد على أهمية الاستثمار في الإمكانيات البشرية والمادية التي تتوفر عليها الأمة الإسلامية عامة، إذ وعلى غرار عديد من الباحثين المختصين في دراسة تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية، يمكننا رد كل تطور فكري عرفه العالم الإسلامي إلى جملة من الشروط المادية والروحية، وذلك بالاستثمار في الإنسان والزمان والمكان، بحيث أنه إذا ما تهيأت الشروط جميعها في الظروف المناسبة قد تؤدي إلى ظهور مثل تلك الأنماط الثقافية والعلمية التي عرفتها حضارتنا الإسلامية،

3- مقارعة مختلف معوقات الحياة الفكرية والثقافية للمسلمين، ورفع سقف الأمل في عودة مجد الأمة من خلال استقطاب جميع فئات الأمة الإسلامية التي بدأت دينية وانتهت حضارية.

4- إفراد دراسات نقدية جادة حول عوامل نشأة وتطور التيارات الفلسفية والعلمية النقدية في العصر الكلاسيكي للمسلمين، خاصة عند أطباء القرن الرابع هجري، وليس التعامل مع معطيات ذلك التطور باعتباره عرضاً من أعراض انتشار المذاهب الفلسفية الكبرى على غرار الأفلاطونية المحدثة، والتي كانت تنحو عنده نحواً مادياً مساوقة باتجاهاتها الميتافيزيقية البحتة فقط. الاعتراف بمنجزات العرب المسلمين في اظهار التيار الفلسفي العقلاني والتيار العلمي التجريبي المستجد والذي كان يتطور باستمرار على يد رعييل من مفكري وعلماء الإسلام في تلك المرحلة التي تعتبر بحق مرحلة تنويرية في الحضارة الإسلامية، لقد كان علمائنا بالفعل رعاة الفكر الناقد والذي اقتضى منهم حضارياً أن يكونوا مستعدين لمجابهة واقعهم الثقافي بمنطق النقد الرصين.

5- قائمة المصادر والمراجع:

1. - ابن أبي أصيبعة. (1965). عيون الانباء في طبقات الأطباء. بيروت، لبنان: دار مكتبة الحياة.
2. - أبو بكر الرازي. (1982). رسائل فلسفية. بيروت، لبنان: دار الأفاق الجديدة.
3. - الحمارنة، ص. (1976). الرازي في مراسلات البيروني وابن سينا. ندوة لإحياء ذكرى الرازي (pp. 45-46). جامعة عين شمس، مصر: مركز تحقيقات كامبيتور علوم اسلامي.
4. - الخطابي محمد العربي. (1998). موسوعة التراث الفكري العربي الاسلامي. بيروت، لبنان: دار الغرب الاسلامي.
5. - الرازي، أ. ب. (1982). رسائل فلسفية (مضاف إليها قطعا من كتبه المفقودة). بيروت، لبنان: دار الأفاق الجديدة.
6. - الرازي، أ. ب. (د.ت). (الشكوك علة فاضل الأطباء جالينوس. القاهرة، مصر: دار الكتب والوثائق القومية مركز تحقيق التراث.
7. - العبد، ع. ا. (1972). أصول الفكر الفلسفي عند أبي بكر الرازي. القاهرة، مصر: دار النهضة.
8. - العظمة، ع. (2001). أبو بكر الرازي. بيروت، لبنان: دار رياض الريس للكتب والنشر.
9. - بدوي، ع. ا. (1993). موسوعة المستشرقين. بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.
10. - بول كراوس. (1936). رسالة البيروني في فهرست كتب الرازي. باريس: مطبعة القلم.
11. - حسام الدين الألوسي. (1977). الزمن في الفكر الديني والفلسفي القديم. مجلة عالم الفكر، 102.
12. - خالد حربي. (د.ت). سر صناعة الطب لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي. الاسكندرية، مصر: دار الثقافة العلمية.
13. - رمضان، ح. (2016). تشظيات روح الحضارة الانسانية في الاسلام. مجلة الخلدونية. 301- 285 ,
14. - رمضان، ح. (2016). مفهوم القدم عند علماء الكلام وعلاقته بمشكلة الزمان. مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية. 156- 143 ,
15. - سلمون بينس. (1946). مذهب الذرة عند المسلمين. القاهرة، مصر: مكتبة النهضة العربية.
16. - طوقان، ح. ق. (2002). مقام العقل عند العرب. القاهرة، مصر: دار القدس للطباعة والنشر.
17. - عبد الرحمن بدوي. (1993). من تاريخ الإلحاد في الاسلام. دار سينا للنشر: القاهرة، مصر.
18. - مالك بن نبي. (2002). وجهة العالم الاسلامي. القاهرة، مصر: دار الفكر المعاصر.

19. - محمد بن اسحاق ابن النديم. (2009). الفهرست. لندن، المملكة المتحدة: دار الفرقان للتراث الاسلامي.
20. - محمد عابد الجابري. (2001). العقل الأخلاقي العربي. بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
21. - محمد عابد الجابري. (2010). تكوين العقل العربي. بيروت، لبنان: مركز الدراسات الوحدة العربية.
22. - مصطفى عبد الرزاق. (1944). تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية. القاهرة، مصر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.